"صوتٌ من تحت الماء"

عمار محمد

رواية

"صوتٌ من تحت الماء "

الفصل الإفتتاحى:

كان يوسف جالسًا على الكرسي الخشبي المقابل للمكتب، لا يفعل شيئًا محددًا سوى ترتيب الأشياء الصغيرة التي لا تحتاج في الحقيقة إلى ترتيب؛ يُزيح ملفًا سنتيمترات قليلة، يعدّل وضع القلم، ثم يعيده إلى مكانه كأنه يبحث عن بداية لا يعرف كيف ينطقها.

قال بصوت منخفض، موجّهًا حديثه إلى الجالس أمامه، من دون أن يرفع رأسه كاملًا:

«لم أكن أنوي أن أتحدث... ليس لأن القصة غير موجودة، بل لأنك تريدها كاملة، وهذا ما يجعل الأمر صعبًا. الحكايات الناقصة يمكن احتمالها، أمّا الحكايات الكاملة فهي أثقل مما يُقال دفعة واحدة، ومع ذلك... سأحكي».

توقّف لحظة، ثم استند بظهره إلى الكرسي، كأن الكلمات التالية تحتاج مساحة أوسع.

«كنت في السابعة والثلاثين من عمري وقتها، غواصًا محترفًا، أمضيتُ أكثر من نصف حياتي تحت الماء، جسدي معتاد على الضغط، وطولي الذي يقارب المتر وخمسة وثمانين سنتيمترًا، ووزني الذي لم يتجاوز الثلاثة والسبعين كيلوغرامًا، لم يكونا أمرًا لافتًا لمن يعرف طبيعة عملي، لكنني لم أكن أرى نفسي كما يراني الآخرون، ولم يكن أحد يعرف عني أكثر مما يلزم».

ساد صمت قصير، قبل أن يتابع:

«كان صباح يوم اثنين، من تلك الصباحات التي تبدو عادية إلى حدّ مريب، وكنت في المنزل، أظن أنني أستحق يوم راحة بعد أسابيع متواصلة من العمل، حين رنّ هاتفي فجأة».

توقّف عن العبث بالأوراق، ونظر إلى الهاتف كأنه ما زال في يده.

«كان أمير».

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة لا تحمل أي مرح.

«أمير مديري في العمل، رجل لا يؤمن بالصدف، ولا بالراحة، ويعتقد أن الغواص الجيد هو الذي لا يعرف متى يتوقف».

قال يوسف بصوت يقلّد نبرة المتحدث الآخر، مع المحافظة على فصاحته:

ـــ يوسف، أين أنت الآن؟

أجبته بهدوء:

ـــ في المنزل يا أمير، اليوم إجازتي كما تعلم.

لم يتأخر صوته عن الرد، كأن الجملة لم تعنه:

ـــ لدينا جثة في النيل، غرقت منذ ثلاثة أيام، ولم يتمكن أحد من انتشالها حتى الآن.

تنفّس يوسف بعمق، وأكمل الحكاية:

«سألته عن الموقع، وعن سبب الاتصال بي تحديدًا، فتنهد وقال إن الغواصين الموجودين يرفضون النزول، بعضهم يتحجج بعدم التمكن، وبعضهم يتحدث عن قصص غامضة لا معنى لها، عن مكان لا يحب الغرباء، وعن جثث لا تخرج بسهولة».

ثم ضحك أمير، ضحكة قصيرة، حاول بها إخفاء ضيقه، وقال:

ـــولكن هذا كلام فارغ يا يوسف، قصص يختلقونها حتى لا يُظهروا عجزهم، وأنت تعرف ذلك.

هنا توقّف يوسف عن الكلام لحظة، ثم أضاف بنبرة أهدأ:

«كنت على وشك أن أجيبه، حين دخلت سارة الغرفة».

رفع رأسه قليلًا، وكأن ذكر الاسم وحده يفرض احترامًا خاصًا.

«سارة زوجتي، في أوائل الثلاثين من عمرها، كانت تحمل فنجان شاي، لكن ملامحها لم تكن هادئة، بل مشدودة كما لو أنها سمعت ما يكفي لتفهم ما يحدث».

قالت سارة، موجّهة كلامها إليه مباشرة، من دون أن تنظر إلى الهاتف:

— هل ستنزل إلى العمل الآن؟ ألم تقل إن هذا يوم راحتك؟

غطّى يوسف سماعة الهاتف بيده، وقال لها بصوت منخفض:

— هناك مهمة طارئة.

هزّت رأسها بامتعاض، وقالت بنبرة تخفي قلقًا أكثر مما تخفي غضبًا:

— دائمًا ما تكون هناك مهمة طارئة.

عاد يوسف إلى الهاتف، وقال لأمير:

— أمير، لدي ظروف عائلية اليوم، أفضّل أن توكل الأمر إلى شخص آخر، أو على الأقل تنتظر إلى الغد.

ساد صمت قصير على الخط، قبل أن يأتي صوت أمير أقل مزاحًا من السابق:

— لم أكن لأتصل بك لو كان هناك خيار آخر يا يوسف.

أنهى يوسف المكالمة، ووضع الهاتف على الطاولة ببطء، ثم قال وهو ينظر أمامه، لا إلى سارة ولا إلى الشخص الذي يحكي له الآن:

«لو كنت أعلم أن ذلك الاتصال هو أول خيط في هذه القصة، لكنت أغلقت الهاتف، وعدت إلى فراشي، وتظاهرت بأن شيئًا لم يحدث... لكن بعض الأشياء، حين تبدأ، لا تنتظر إذنك».

—-

قال يوسف، وقد تغيّر صوته قليلًا، كأن المكان عاد يضيق حوله وهو يتذكّره:

«وصلنا إلى الموقع قبل الظهر بقليل. لم يكن هناك حشد، ولا سيارات كثيرة، فقط شاحنة المعدات، ومنصّة العمل المؤقتة، والنيل ساكن على غير عادته، ساكنًا إلى حدّ يثير الريبة».

توقّف، ثم أضاف:

«كان في انتظارنا ماهر... وأنور مشغّل الأنظمة فقط. لا أثر لأمير، ولا لأي غواص آخر».

اقترب ماهر منه فور نزوله من السيارة، لم يسلّم، لم يسأل عن الطريق، بل قال مباشرة، وبصوت لا يحتمل النقاش:

— لا يوجد وقت يا يوسف، يجب أن تنزل الآن.

نظر يوسف إليه متفحّصًا ملامحه، فوجدها متصلّبة على نحو لم يره من قبل.

— قبل أن أنزل، أريد أن أفهم... أين اختفى أمير؟ وكيف؟

هزّ ماهر رأسه في نفاد صبر، وقال:

— نزل، ولم يخرج. لا حركة، لا إشارة، لا شيء. نحتاج أن نعرف أين توقّف.

صمت يوسف لحظة، ثم قال:

— حسنًا... سننزل تباعًا. أنت أولًا.

نزل ماهر.

مرّت الدقائق بطيئة، أطول مما ينبغي، ثم خرج أخيرًا، وهو يلهث، ينزع القناع عن وجهه.

— لا شيء، قالها بحدة، لا أثر له، ولا للجثة، ولا لأي علامة.

لم يناقشه يوسف. ارتدى معدّاته، وتقدّم نحو الحافة.

«عندما نزلتُ، أدركتُ سريعًا أن المكان مختلف. الإضاءة موجودة، أشعة الشمس تصل إلى عمقٍ لا بأس به، المصابيح تعمل، وكل شيء من حولي واضح... إلا تلك المنطقة».

سكت لحظة، ثم أكمل:

«كانت بقعة سوداء، لا تشبه الظل، ولا تشبه العمق، كأن الضوء يختفي عند حدودها دون سبب».

اقترب بحذر.

وفجأة...

تحرّك الحبل.

خمس شدّات متتالية.

تجمّد يوسف في مكانه، ثم صعد فورًا، وفق ما هو متّفق عليه بين الغواصين.

ما إن خرج حتى صاح:

— ما الذي حدث؟ لماذا ناديتني؟

نظر إليه ماهر باستغراب حقيقي.

— لم أنادك.

— الحبل، قال يوسف بحدّة، شُدَّ خمس مرات.

التفتا إلى أنور.

— هل شددتَ الحبل؟ سأله ماهر.

رفع أنور يديه فورًا، وقال بارتباك:

— أقسم أنني لم ألمسه.

نظر يوسف إلى الماء مرة أخرى، ثم قال:

— سأعيد النزول.

نزل ثانية.

اقترب من البقعة السوداء...

والحبل تحرّك من جديد.

خمس شدّات.

خرج بسرعة أكبر هذه المرة.

— لم يحدث شيء، قال ماهر وهو يخلع قفازه، أنت متوتر يا يوسف.

— حسنًا، قال يوسف وهو يحدّق فيه، سنجرب بطريقة أخرى. قم بشدَّ الحبل عشر مرات إن أردتُ منى الصعود.

نزل للمرة الثالثة.

وقبل أن يبلغ حدود المنطقة السوداء...

تحرّك الحبل.

عشر شدّات كاملة.

خرج يوسف، ونزع القناع بعصبية واضحة.

ـــ لم أفعلها، قال ماهر بحدة، تبدو أعصابك متعبة.

ثم أضاف بعد لحظة:

ـــ سأفعل العكس. أنا سأنزل، وعندما أصل إلى المكان نفسه، شدّ أنت الحبل خمس مرات.

نزل ماهر.

راقبه يوسف بدقة، وعيناه لا تفارقان الحبل.

وعندما بلغ ماهر حدود تلك البقعة السوداء...

تحرّك الحبل.

خمس شدّات.

سحب يوسف ماهر بسرعة، وما إن خرج حتى صاح:

ـــ لماذا صعدت؟ أنا لم أطلب ذلك!

نظر ماهر إليه وقد شحب وجهه.

ـــ بل أنت من ناداني.

التفتا معًا إلى أنور.

كان أنور قد ابتعد خطوة إلى الخلف، وقال بصوت متكسّر:

— يجب أن نغادر الآن... هناك شيء خاطئ، لقد بقينا وقتًا طويلًا، وبذلتم جهدًا كبيرًا، وسنعود غدًا.

قال يوسف، وهو ينظر إلى الماء، لا إلى الرجلين:

«في تلك اللحظة، لم أعد أفكر في أمير، ولا في الجثة، ولا في العمل. كل ما كنت أعرفه أن المكان تحت الماء لم يكن ينتظرُنا... بل كان يبعدُنا»

—-

قال يوسف، وقد خفّ صوته كأن الكلمات الأخيرة لا تُقال إلا بصعوبة:

«غادرنا الموقع قبل الغروب بقليل. لم يكن بيننا حديث يُذكر، لم نحاول تفسير ما حدث، ولم يعلّق أحد على الأمر صراحة، وكأننا اتفقنا دون اتفاق على أن نؤجّل الأسئلة إلى وقت لاحق».

توقّف لحظة، ثم تابع:

«عدتُ إلى المنزل، لكنني لم أعد إليه حقًّا. جسدي كان هناك، أمّا ذهني فظلّ عالقًا عند تلك البقعة السوداء، وعند الحبل الذي تحرّك دون يد، وعند الإشارات التي جاءت في توقيتٍ لا يقبل المصادفة».

جلس قليلًا، ثم نهض، ثم عاد ليجلس، كأن المكان نفسه لم يعد يريحه.

«كنتُ أراجع ما حدث مرارًا، أسأل نفسي السؤال ذاته: من الذي شدّ الحبل؟

هل كان أحدنا مخطئًا؟ هل خانتنا الحسابات؟ أم أن هناك يدًا أخرى لم نرها؟»

رفع رأسه قليلًا، وقال بنبرة أقرب إلى الاعتراف:

«كان الشعور المسيطر عليّ أن شيئًا ما لم يكن يريدنا هناك، لا يهاجم، ولا يهدد، بل يدفعنا برفقٍ مقلق، كأن وجودنا في ذلك الموضع تحديدًا كان خطأ يجب تصحيحه».

ساد صمت قصير، ثم أضاف:

«هل كان النيل نفسه؟

أم كان هناك شخص؟

أم شيء لا أعرف له اسمًا؟»

تنفّس ببطء.

«كنت أعلم أنني على موعد للنزول مرة أخرى في اليوم التالي مع ماهر، وأن الأسئلة التي أتعبتني لن تختفي بالهروب، بل ستزداد وضوحًا كلما حاولت تجاهلها».

ثم قال، وهو يطرق الطاولة بإصبع واحد، طرقًا خفيفًا يكاد لا يُسمع:

«ظلّ السؤال يلاحقني طوال الليل، سؤال واحد لا يتغيّر، لا يهدأ، ولا يقبل إجابة:

من الذي كان يبعدني عن ذلك المكان؟ ولماذا؟»

صمت.

«وعندما غلبني النوم أخيرًا، لم يكن نوم راحة... بل هدنة قصيرة مع شيء أعرف أنني سأقابله مجددًا»

———-

الفصل الثاني

(الجثة التي لم تكن جسدًا)

قال يوسف، وهو يضمّ كفّيه كأن الدفء قد غادرهما منذ زمن:

«لم يمرّ الليل طويلًا كما توقعت، ولم يمرّ قصيرًا كما تمنّيت. كنت أعلم، دون سبب واضح، أن الصباح لن يأتي عاديًا».

توقّف قليلًا، ثم تابع:

«رنّ الهاتف قبل الفجر. لم أحتج أن أنظر إلى الشاشة كي أعرف من المتصل».

تنفّس بعمق.

«كان ماهر».

جاء صوته متوترًا، متقطعًا، خاليًا من أي محاولة للتمهيد:

— يوسف، يجب أن تحضر الآن.

أجبته وأنا ما زلت نصف مستيقظ:

— ماهر، اتفقنا أن ننتظر... أن نعيد الحسابات.

قاطَعَني بصوت حاسم، لا يشبهه:

— لا مجال للانتظار. عليك أن تأتي. الآن.

سألته:

— ماذا حدث؟

ساد صمت قصير، ثم قال:

— الجثة ظهرت.

لم يسأل يوسف عن أي جثة، كأنه كان يعرف الإجابة مسبقًا.

«أغلقت الهاتف، ونظرت إلى سارة. كانت نائمة، وجهها هادئ، كأن صوت الهاتف لم يقترب منها ولم تسمعه. لم أوقظها. لم أقل شيئًا. ارتديت ملابسي بهدوء، وغادرت المنزل قبل أن يطلع الضوء كاملًا».

رفع رأسه قليلًا، وعيناه لا تستقران في مكان واحد.

«عندما وصلت إلى الموقع، كان المشهد مختلفًا. سيارات الشرطة، شريط التحذير، وجوه متجهمة، وهمسات لا تنتهي. والجثة... كانت هناك».

صمت.

«قالوا إنها جثة الفتى. الفتى الذي نزل أمير يبحث عنه».

اقترب يوسف خطوة، ثم أخرى.

«من الخارج، لم يكن هناك ما يلفت النظر. لا جروح، لا آثار عنف، لا تشوّه. جسد كامل، سليم، كأنه نام في الماء ثم قرر أن يطفو».

لكن صوته انخفض.

«المشكلة لم تكن فيما رأيناه... بل فيما لم يكن موجودًا».

ابتلع ريقه، ثم قال:

«عندما لمس الطبيب الجثة... لم يكن ذلك لمسًا لجسد إنسان».

رفع يده، كأنه يعيد الحركة.

«كان الأمر أشبه بلمس كيس مملوء بالماء. الجلد موجود، نعم، لكن بلا مقاومة، بلا ثقل، بلا ما تحته».

سكت لحظة، ثم تابع بصوت أقرب إلى الهمس:

«وعندما ضغط قليلًا... انفجر».

رفع نظره إلى من يستمع إليه، وقال بصراحة موجعة:

«أعلم أنك لن تصدقني».

ثم أكمل دون انتظار رد:

«لم يكن هناك دم.

لم تكن هناك عروق.

لم يكن هناك لحم... ولا أعضاء».

تنفّس بعصبية.

«خرجت المياه فقط. كأن الجسد كان غلافًا فارغًا، يحتفظ بشكل إنسان، لكنه لا يحتويه».

هزّ رأسه ببطء.

«كأن شيئًا ما أخذ كل ما في الداخل... وترك القشرة».

ساد الصمت للحظة طويلة.

«حضرت الشرطة، حضر الأطباء، تحوّل المكان إلى فوضى منظمة، وكل واحد يطرح تفسيرًا لا يفسر شيئًا. قيلت كلمات كثيرة: تحلل غير طبيعي، ضغط ماء، حالة نادرة... لكن أحدًا لم ينظر في عينيّ وهو يقولها».

خفض صوته أكثر.

«في النهاية، وبعد التشريح، تقرر دفن الجثة. ليس احترامًا لها... بل كوسيلة للتخلص منها».

تنفّس بعمق، وقال:

«كان يومًا غريبًا، يومًا لم يفهم فيه أحد ما الذي رآه حقًّا. أما أنا... فكنت أعرف شيئًا واحدًا فقط».

رفع عينيه ببطء.

«ما كان في النيل لم يكتفِ بالطرد هذه المرة... بل أعاد ما لا يجب أن يعود».

وسكت.

قال يوسف، وقد بدا صوته أثقل من قبل، كأن الكلمات نفسها تخرج بصعوبة:

«ما لم أقله لك بعد... هو ما قاله لي ماهر في ذلك اليوم».

رفع عينيه ببطء.

«بعد البلاغ مباشرة، وبعد أن غادرنا الموقع في الليلة السابقة، اتصلوا به وحده. نزل دون ضجيج، دون معدات زائدة، ودون أن يخبر أحدًا بما رآه فعلًا».

سكت لحظة.

«قال لي إن الجثة لم تكن طافية، ولم تكن عالقة، بل خرجت أمامه... من النقطة السوداء نفسها».

انعقد حاجبا يوسف.

«قالها بهدوء مخيف، كأن الأمر بديهي:

كانت هناك... ثم لم تكن... ثم خرجت».

تنفّس بعمق، ثم قال بحسم:

«عندها قلت له إننا سنعود. لا خيار آخر. سنجلب المعدات، سننزل، وسنصل إلى هناك. يجب أن نعرف أين أمير، ولماذا اختفى، وما الذي يحدث فعلًا».

اتصل بأنور، طلب منه تجهيز العدة كاملة، دون شرح، ودون نقاش.

«عدنا إلى النيل».

ساد صمت قصير.

«قبل النزول، أمسكتُ بماهر جانبًا. اتفقنا على إشارة مختلفة، لا يعرفها غيرنا. شدّات محددة، ترتيب لا يمكن أن يخطئ. أردتُ أن أعرف، هذه المرة دون شك، إن كان الحبل يتحرك بيد بشرية... أم لا».

نزل يوسف.

«كل شيء بدا طبيعيًا في البداية. الضوء حاضر، التيار هادئ، الأجهزة تعمل. حتى اقتربتُ».

خفض صوته.

«اقتربتُ من تلك النقطة السوداء».

وفجأة...

تحرّك الحبل.

الإشارة جاءت مطابقة تمامًا لما اتفق عليه مع ماهر.

«خرجتُ فورًا».

نظر إلى ماهر.

«عيناه قالتا كل شيء. لم يكن هو».

لم يتكلما.

نزل يوسف مرة أخرى.

«هذه المرة لم يحدث التكرار».

اقترب أكثر.

ثم...

تغيّر كل شيء.

«رأيته».

سكت.

ثم قال ببطء، وكأن كل حرف يجرح:

«شخص... أو شيء... كان أمامي مباشرة. ليس ظلًا، ليس انعكاسًا، بل حضورًا كاملًا، عين في عين».

وتشنّج صوته:

«قالها بوضوح، بلا صدى، بلا تشويه:

اخرج من هنا».

وفجأة...

الظلام.

«انطفأ كل شيء. الضوء، الاتجاه، الإحساس بالمسافة. ضربتُ بيدي أبحث عن الحبل... لم أجده».

بدأت أنفاسه تتسارع وهو يحكي.

«رأيتُه بعيدًا... الحبل. كلما اقتربتُ، شعرتُ أنه يبتعد، لا يتحرك، بل يُسحب مني».

ثم...

«وصل إليه».

شددت الحبل بما تبقى منى من حول .

شدّني ماهر بعنف.

خرجتُ.

سقطتُ على المنصة، ولم أتكلم. لم أصرخ. لم أستطع.

«في تلك اللحظة، نزل ماهر».

حاولتُ منعه. أمسكتُ به. لم يفهم. لم أجد كلمات.

نزل.

«كنت مع أنور وحدي فوق».

بدأ وعيي يعود ببطء.

نظرتُ إلى الحبل، ثم إلى أنور، وقلت له بصوت مكسور:

— اسحبه... أعده... هناك شيء لا يريدنا.

سألني:

— ماذا رأيت؟

أجبته بصدق لا يحتمل الشرح:

— ما لا يجب أن يُرى.

لكن قبل أن نتحرك...

«سُحب الحبل».

ليس شدًّا...

بل سحبًا عنيفًا إلى الخلف.

سُحب أنور معي.

وفي اللحظة نفسها...

خرج ماهر.

كان وجهه شاحبًا، عيناه متسعتين، أنفاسه غير منتظمة.

أمسكتُ به وسألته بصوت مرتجف:

— ماذا سمعت؟

نظر إليّ، وقال:

— ظهر أمامي... مباشرة أمام النظارة.

— ظلام... ثم قال: اخرج من هنا... لا تعود.

صمت يوسف طويلًا.

ثم قال الجملة التي غيّرت كل شيء:

«حينها فقط فهمت... أن ما في النيل لم يكن يكلّم واحدًا منا... بل كان يعرفنا جميعًا».

قال يوسف، وقد بدا صوته واهنًا، كأن ما تبقّى منه لا يحتمل أكثر:

«لم يصدقنا أحد».

رفع عينيه ببطء.

«لا الشرطة، ولا المسؤولون، ولا الأطباء، ولا حتى بعض من عملوا معنا سنوات طويلة. الكلمات التي خرجت من أفواهنا بدت لهم أقرب إلى الهذيان، وأقرب إلى خوفٍ جماعيٍّ لا أكثر».

توقّف قليلًا، ثم أضاف:

«حتى أنور... أنور نفسه قالها صراحة».

وتحوّل صوته إلى محاكاة باردة:

— لم أرَ شيئًا... لم أسمع شيئًا... لكن ما رأيته في أعينكم لم يكن طبيعيًا.

عاد يوسف إلى نبرته.

«كان صادقًا. لم يكذب. هو لم يرَ... لكنه رأى ما هو أسوأ».

صمت.

«رأى الرعب».

شدّ أصابعه بعضها إلى بعض.

«نظرات ماهر لم تكن نظرات رجل خائف فقط، بل نظرات شخص انكسر شيء داخله ولم يعرف اسمه. كان ينظر إليّ وكأنه يسألني سؤالًا لا يريد إجابته: هل ما رأيناه حقيقي؟ أم أننا لم نعد كما كنا؟».

ابتلع ريقه.

«لم نجد تفسيرًا، ولم نجد أثرًا لأمير. تحوّل اختفاؤه في التقارير إلى حادث غرق محتمل، ثم إلى فقدان، ثم إلى ملف أُغلق على عجل».

خفض صوته أكثر.

«لكن النيل لم يُغلق شيئًا».

رفع رأسه فجأة.

«بعد أيام قليلة... ظهرت جثة أخرى».

ساد صمت ثقيل.

«نفس الوضع.

نفس السلامة الخارجية.

نفس الفراغ».

اقترب منها أحدهم، ولمسها...

وتكرّر المشهد.

«جلد بلا حياة.

ماء بلا دم.

وغلاف يشبه الإنسان... دون إنسان».

قال بصوت مبحوح:

«عندها فقط، بدأ الخوف الحقيقي».

تنفّس بعمق.

«لم يعد الأمر حادثًا. لم يعد وهمًا. لم يعد قصة نرويها في الخفاء. كان هناك نمط، وكان هناك شيء يعيد ما يأخذه... لكن بعد أن يُفرغه».

توقّف، ثم قال الجملة الأخيرة ببطء قاتل:

«وعندها أدركت الحقيقة التي حاول الجميع الهروب منها... أمير لم يمت».

رفع عينيه نحو من يستمع إليه.

«ما حدث له كان أسوأ من الموت».

سكت.

«كان رعبًا... لم يخرج»

———-

الفصل الثالث

(لا تعود)

قال يوسف، وهو يشبك يديه كمن يحاول أن يمنع ارتعاشًا قديمًا من العودة:

«اختفى أمير من التقارير، لكنه لم يختفِ من حياتنا».

رفع رأسه ببطء.

«بعد أيام قليلة، اتصل بي ماهر في ساعة متأخرة من الليل. لم يكن صوته مرتجفًا، بل كان خاليًا من أي نبرة، وهذا ما أخافني».

قال لي:

— يوسف... هل تذكر بيت أمير؟

أجبته:

— نعم، ماذا هناك؟

سكت لحظة، ثم قال:

— لم يأتِ إلى بيتي... هو كان في بيتي.

لم أفهم ما يقصده، فطلبتُ منه أن يتأنّى، أن يشرح، أن يتوقف عن إرسال جُمَل مبتورة لا تُفيد.

تنفّس ماهر بعمق، ثم قال:

— رأيته.

سألته مباشرة:

— من؟

— أمير.

لم أجب.

«ماهر يسكن في منزل وحيد، بعيد عن الضجيج، اعتاد العزلة، ولم يكن من النوع الذي يخلط بين الخيال والواقع. ومع ذلك، حاول في البداية أن يقنع نفسه بما حاولنا جميعًا التمسك به».

قال لي لاحقًا:

— ظننتها صورة عابرة، انعكاس ضوء، تعبًا متراكمًا، شيئًا لا يستحق الوقوف عنده... حتى سمعت صوته.

سألته:

— ماذا قال؟

صمت طويلًا قبل أن يجيب.

— لا تعود... لا تعود.

خفض يوسف صوته وهو يحكي:

«لم يكن الصوت صراخًا، ولا تهديدًا. كان أقرب إلى رجاء مكسور، كأن من يقوله يعرف ما ينتظر من يعود».

تكرّر الأمر.

ليلة بعد ليلة.

ليس ظهورًا كاملًا، ولا جسدًا واضحًا، بل حضور، ظل عند طرف الرؤية، وصوت يخرج من مكان لا يُرى.

لا تعود... لا تعود.

قصّ ماهر عليّ كل شيء، وكنت أستمع... لكنني لم أصدّق.

قلت له بهدوء مصطنع:

ـــ ماهر، أنت مرهق. ما مررنا به كافٍ ليصنع أوهامًا حقيقية. اخرج من البيت، لا تبقَ وحدك، ولا تحاصر نفسك بالصمت.

وافقني، أو هكذا ظننت.

«مرّ أسبوعان».

هدأت الأمور ظاهريًا، لم يتصل ماهر، ولم يتكرر الحديث عن أمير، وكدتُ أظن أن الخوف بدأ يتراجع، حتى جاء الخبر».

كان الجو ماطرًا، المطر كثيفًا، ثقيلًا، من النوع الذي يجعل النهر يبدو أعلى مما هو عليه.

«مجموعة من الشباب خرجوا للصيد، انزلقت أقدامهم، وسقطوا في النيل».

بلاغ مجهول.

موقع السقوط...

نفس المنطقة.

قريبة من تلك النقطة السوداء.

تنفّس يوسف ببطء.

«اتصلوا بنا. أنا وماهر. قالوا إن الجو صعب، والتيار قوي، لكن لا خيار آخر».

سكت لحظة، ثم قال:

«حين أغلقت الهاتف، لم أفكر في الشباب، ولا في المطر، ولا في الخطر. فكرت في شيء واحد فقط».

رفع عينيه، وقال:

«إذا كان أمير يقول: لا تعود... فلمن كان يقولها حقًّا؟»

———

وصلوا إلى المكان وسط المطر الغزير، والريح تهز الأشجار، والمياه تتقافز بعنف على الصخور. وقف ماهر فجأة، وجهه شاحب، عينيه واسعتان، والارتباك يسيطر عليه بالكامل.

صرخ فجأة:

— يوسف!

تجمّدنا أنا وأنور، ومساعدنا الثالث خلفنا.

— لم أفهم... لا أنا، ولا أنور، ولا حتى سليم ثالثنا... ماذا حدث؟ وماذا هناك؟

حاولت تهدئته، مددت يدي وأخذت نفسًا عميقًا:

— ماهر... اهدأ، اخبرنا ماذا بك ... سنتصرف معًا.

لكن ماهر صرخ مرة أخرى، صوته مشوّه بالغضب والخوف:

— هناك... هناك أمير على الشاطئ! يقول... يقول: لا تعود!

قلت له بحزم :

— سأهبط أنا أولًا.

تقدم أنور، يمسك بكتفي:

ـــ اهدأ، يوسف. لا تتصرف بسرعة، استمع قبل كل شيء.

وفجأة، كأن الهواء نفسه تجمّد، سمعنا صوتًا واضحًا، قادمًا من الأمواج والريح:

ـــ لا تعود... لا تعود...

سمعته أنا بمفردي، لكنه كان كافيًا لشدّ أعصابي، لأبقى واقفًا صامدًا رغم الرعب.

نظر إليّ ماهر بعينين متسعتين:

ـــ دخل النيل ... إنه هناك أمير ...التيار جرفه...

رد سليم ابعد ان أمسكه :

ـــ لا أحد هناك... اهدأ... ماذا حدث لك؟

وسط النهر، حضّرت نفسي، تراجعت خطوة، استعدت لمواجهة ما سيأتي. سليم حضّر نفسه، وماهر أيضًا، عيوننا تتبادل نظرات مليئة بالإصرار والخوف، كأننا ندرك أن أي خطأ سيكلفنا غاليًا.

قلت لنفسي بصوت منخفض، بينما أجهز المعدات:

ـــ لن أترك ماهر ينزل وحده، وبداخلى لا اريد أن أترك نفسي وحدي فى القاع ...

ماهر تماسك، وقال بحزم رغم الخوف:

ـــ لن أتركك، يوسف... سأكون معك.

أدركت أنه على الرغم من رغبتي في أن ينزل هو، كنت أريده فقط ليخرجني من ذلك الموقف.

لكن الصوت لم يتركني، ظل يرن في أذني:

— لا تعود... لا تعود...

وحين هممنا بالنزول، كانت المياه أكثر عنفًا، والظلام أكثر كثافة، والريح تصفر كأنها تحذرنا...

وفي تلك اللحظة، أدركت أن الرعب ليس في ما حولنا فقط، بل في ما بداخلنا، في أصوات لا نراها، لكنها تراقبنا.

-

نظرنا لبعضنا ثم اتفقنا.

« حسنًا... نغوص الآن.

لا تراجع، ولا هواء يكفي. »

———

مشهد النزول

قال يوسف، وصوته صار أبطأ، أثقل، كأن كل كلمة تخرج من قاع صدره:

«نزلنا...

ولم يكن النزول ككل مرة».

السواد كان أعظم من قدرة الأنوار على تمزيقه.

مصابيح الغوص كانت تعمل بكامل قوتها، ومع ذلك بدت كشموع صغيرة في فم ليلٍ لا ينتهي. الضوء لا ينكسر... بل يُبتلع.

«الماء لم يكن ماءً فقط، كان كثيفًا، ضاغطًا، كأن النيل نفسه صار جسدًا حيًّا يضيق علينا».

في البداية، لم نرَ شيئًا.

ثم... بدأنا نرى أشخاصًا.

ليسوا واضحين.

ظلال بشرية، واقفة في العمق، ثابتة، لا تتحرك، بلا ملامح. كلما اقتربنا، تراجعوا خطوة، وكلما أدرنا الضوء، اختفوا كأنهم لم يكونوا.

ثم جاءت الأصوات.

أصوات متعددة، متداخلة، ليست صراخًا، بل همسات تحذير، تخرج من كل اتجاه:

— لا...

— لا تكملا...

— ارجعا...

لم أعرف عددها، ولا مصدرها، فقط كنت أعلم أنني أسمعها داخل رأسي لا عبر الماء.

نظرت إلى ماهر.

كان بجانبي... ثم لم يكن.

اختفى.

استدرت بعنف، حرّكت الضوء، قلبي يضرب صدري بقسوة.

ماهر لم يكن أمامي، ولا خلفي، ولا في مجال الرؤية.

وفي اللحظة نفسها...

شدّ الحبل.

شدًّا عنيفًا، متواصلًا، لا يشبه أي إشارة اتفقنا عليها.

ثم رأيته.

أمير.

ظهر فجأة أمامنا، ليس كظل، بل كجسد كامل، ملامحه واضحة عبر الزجاج، عيناه غائرتان، لكنهما ثابتتان علينا.

مدّ يده.

لم يتكلم.

أمسك بالحبل...

وسحبنا بقوة.

في تلك اللحظة، اختفى التيار، كأن النهر توقّف عن التنفّس، ووجدنا أنفسنا نتحرك خلفه، بلا مقاومة.

ثم... اختفى.

مرة واحدة.

كأن أحدًا أطفأه من الوجود.

وفجأة...

بدأت الجثث تخرج.

لم تطفُ من القاع، بل اندفعت من الظلام، واحدة تلو الأخرى، بنفس الشكل، بنفس الفراغ.

أجساد بشرية بلا وزن حقيقي، بلا دم، بلا أعضاء.

مجرد جلود مشدودة، تنتفخ بالماء، ثم تتمزق، يخرج منها السائل كأننا نثقب أكياسًا ضخمة.

رأيت وجه شاب...

وعيناه مفتوحتان، فارغتان، تنظران إليّ دون أن تريان.

الأصوات عادت، أقرب، أوضح:

— لا تعود...

— لم يكن يجب أن تروا...

— الآن عرفتم...

شعرت بضغط هائل على صدري، ليس من العمق فقط، بل من الخوف، من الإدراك، من فكرة أننا لسنا وحدنا، ولم نكن كذلك أبدًا.

أدرت الضوء بسرعة...

فرأيت أشخاصًا يقفون خلفي.

كثيرين.

ثم لم أجد أحدًا.

ثم ظهروا أمامي.

ثم اختفوا.

كأن النيل نفسه يعرض علينا وجوه من ابتلعهم... أو من لم يسمح لهم بالمغادرة.

وفي وسط هذا الجنون...

رأيت ماهر.

بعيدًا.

كلما اقتربت منه، ابتعد.

أمدّ يدي، فلا أصل.

أصرخ، ولا صوت يخرج.

ثم...

شدّ الحبل مرة أخرى.

لكن هذه المرة...

لم يكن إنقاذًا.

كان إنذارًا.

وتوقّف يوسف عن الكلام فجأة.

سكت.

ثم قال بصوت خافت:

«في تلك اللحظة...

فهمت أن أمير لم يكن ميتًا...

كان عالقًا...

وأن ما تحت الماء لا يقتل دائمًا...

بعضه يُعيدك... لتُحذِّر غيرك»

-

قال يوسف، وصوته كان كمن خرج من سباحة طويلة في ظلام لا ينتهي:

«خرجنا...

لكننا لم نعد كما نزلنا».

اندفعنا إلى السطح مع أول دفعة هواء، المطر كان يهطل بعنف، والريح تصفع وجوهنا، والنهر هائج كأن شيئًا فيه يثور بعد أن كُشف سرّه.

سحبونا إلى الشاطئ بصعوبة. أنور كان يصرخ بالأوامر، وسليم يكاد ينهار، أما أنا... فكنت أنظر خلفي، إلى الماء، كمن ينتظر أن يخرج منه شيء آخر، لكن لا أعلم ماهو ..

ثم بدأت الجثث تخرج.

واحدة...

ثم أخرى...

ثم أخرى.

لم تطفُ بهدوء، بل ظهرت فجأة، دفعة واحدة، كما خرجت سابقاتها. نفس الأجساد الخاوية، نفس الجلد المشدود، نفس الفراغ المخيف.

حين لمست إحداها الأرض، انشقت، وسال منها الماء، لا دم، لا رائحة حياة، فقط ماء... كثير من الماء.

ساد صمت ثقيل.

حتى المطر بدا كأنه خفّ قليلًا، كأن الطبيعة نفسها توقفت لتشاهد.

وصلت الشرطة.

هذه المرة لم يكن حضورًا عابرًا، ولا إجراءً روتينيًا. الضباط وقفوا مشدوهين، الأطباء الشرعيون تبادلوا نظرات لا إجابة فيها، أحدهم تمتم بصوت منخفض:

— هذا... غير ممكن.

طلبوا التحقيق.

لأول مرة.

لأن المشهد لم يكن جثة واحدة، ولا حادث غرق عادي، بل عدة أجساد خرجت من المكان نفسه، بالشكل نفسه، في الليلة نفسها.

سألونا كثيرًا.

كيف؟

متى؟

من أين؟

لم نملك إجابات.

أنور قال إنه لم يرَ شيئًا.

سليم قال إن ما رآه لا يستطيع وصفه.

ماهر... لم يكن يتكلم.

كان يجلس بعيدًا، عيناه مثبتتان على النيل، كأنه ينتظر أن يسمع شيئًا... أو أن يُنادى باسمه.

أما أنا، فكنت أعلم أن الحقيقة لن تُكتب في أي محضر.

لأن ما حدث لم يكن جريمة...

كان تحذيرًا.

رفع يوسف عينيه عن الأرض، وقال بصوت خافت:

«تلك الليلة، بدأ التحقيق الرسمي...

لكن الرعب الحقيقي...

كان قد بدأ بالفعل».

وسكت.

الفصل الرابع

(الطريق المسدود)

قال يوسف، بعد صمتٍ طويل، كأن الكلمات تُنتزع من صدره:

«بدأ التحقيق في صباح اليوم التالي...

لكن منذ اللحظة الأولى، كنت أعلم أنه لن يصل إلى شيء».

جلسنا في غرفة ضيقة، جدرانها رمادية، رائحتها خليط من الرطوبة والورق القديم. ضابطان، طبيب شرعي، ومسؤول إداري بدا عليه الضجر أكثر من الفضول. المطر كان ما يزال يهطل في الخارج، لكن صوته لم يصل إلينا، كأننا عُزلنا عن العالم.

بدأوا بالأسئلة المعتادة.

متى نزلتم؟

كم استغرق النزول؟

هل لاحظتم تيارًا غير طبيعي؟

أجبنا...

بقدر ما يسمح به العقل.

لكن حين وصلوا إلى ماهر، تغيّر كل شيء.

قال الضابط، وهو يقلّب أوراقه:

— حسب إفادتك، رأيتَ شخصًا يُدعى أمير... وهو مسجَّل كغريق مفقود.

ماهر لم يرد.

رفع الضابط رأسه:

ـــ هل تؤكد أنك رأيته؟

قال ماهر، بصوت منخفض، متعب:

ـــ نعم.

تبادلوا النظرات.

قال الطبيب الشرعي بهدوء بارد:

ـــ كل الجثث التي خرجت... لا تحمل أي أثر صراع، ولا علامات عنف، ولا تفسير طبي واضح. لكن هذا لا يعني وجود... أشباح.

كلمة أشباح خرجت من فمه كاستهزاء.

قال ضابط آخر:

ـــ نعتقد أن الضغط، والإرهاق، والظروف الجوية السيئة... تسببت في هلوسة مؤقتة.

نظر إلى ماهر مباشرة:

ـــ هل سبق أن عانيت من نوبات قلق؟ أو توتر عصبي؟

لم يجب ماهر.

قال يوسف:

ـــ ما حدث لم يكن هلوسة.

رفعوا أنظارهم نحوي.

— الجثث خرجت، هذا واقع. تشريحها لا يفسّر حالتها. والصوت... لم يسمعه ماهر وحده.

دوّنوا شيئًا، لكنني أدركت أن القرار قد اتُّخذ.

في نهاية التحقيق، خرجنا بتقرير بارد، مقتضب، خالٍ من أي إشارة لما رأيناه.

وإشارة واحدة غير مكتوبة، لكنها واضحة:

ماهر غير مستقر نفسيًا.

قال يوسف بصوت خافت:

«اتهموه ضمنيًا بفقدان عقله... وكان ذلك أسهل تفسير».

بعد أيام قليلة...

اختفى سليم.

لم يأتِ إلى العمل.

هاتفه مغلق.

منزله خالٍ.

في البداية قالوا: إجازة مفاجئة.

ثم قالوا: ربما غادر المدينة.

لكنني ذهبت إلى بيته.

الباب كان مفتوحًا.

كل شيء في مكانه...

إلا شيء واحد.

حذاءه.

كان مبللًا...

وكأن صاحبه عاد لتوّه من الماء.

لا أثر لعراك، ولا رسالة، ولا دليل.

فقط رائحة خفيفة...

رائحة نهر.

عندها فقط، بدأ الخوف الحقيقي.

ماهر انهار.

صار صامتًا، عيونه غائرة، يتلفت كثيرًا، يرفض النوم وحده. كان يقول لي أحيانًا:

— هم لا يخرجون الجثث عبثًا، يوسف... هم يعيدونها.

سألته ذات ليلة:

— من هم؟

هزّ رأسه:

— لا أعرف... لكنهم ليسوا موتى فقط.

بعد أسبوع، عُثر على جثة جديدة.

نفس الشكل.

نفس الفراغ.

نفس الماء.

لكن هذه المرة...

كانت جثة سليم.

وقف يوسف، وصوته بدأ يرتجف:

«عندها، بدأ الاعتراف».

ليس اعترافًا رسميًا، ولا كلامًا في محضر.

بل اعترافًا داخليًا...

حقيقة بدأت تتكوّن في رأسي، رغماً عني.

الجثث لا تخرج لأن النهر يلفظها.

ولا لأن التيار تغيّر.

ولا بسبب خلل طبيعي.

الجثث تخرج...

لأن شيئًا ما في الأسفل لم يعد قادرًا على الاحتفاظ بها.

هناك منطقة...

ليست سوداء فقط في الضوء، بل في المعنى.

مكان لا يقبل البقاء طويلًا.

من يدخله... لا يموت فورًا.

يُفرَّغ.

يُسحب منه ما يجعله بشرًا.

ثم يُعاد...

كتحذير.

رفع يوسف نظره، وعيناه ثابتتان على من أمامه، وقال الجملة الأخيرة :

«والأسوأ...

أن من يُعيدهم...

لا يريد أن نعرف الحقيقة».

-

ثم تابع يوسف وقال ، وهو يُعيد ترتيب الأوراق فوق المكتب كمن يتهرّب من النظر إلى شيء أعمق:

«بعد التحقيق، لم يُسمّوها إجازة...

قالوا: راحة إجبارية. لي... ولماهر».

عدتُ إلى البيت في وضح النهار، لأول مرة منذ أيام بلا حقيبة غوص، بلا هاتف عمل، بلا نداءات طارئة. النيل بدا بعيدًا، لكن حضوره كان أثقل من أي وقت مضى.

سارة كانت في انتظاري.

نظرت إليّ طويلًا، نظرة زوجة تحاول أن ترى زوجها، لا الغواص، لا الشاهد، لا الرجل الذي عاد من الماء ومعه شيء لا يُرى.

قالت بهدوء لا يخلو من شك:

— يوسف... ما تحكونه... غير منطقي.

جلستُ، مرهقًا، ووضعت رأسي بين يديّ.

— أعلم.

لكنها أكملت:

— ماهر متأثر... وأنت تأثرت به. هذا ما يحدث. ضغط، موت، تحقيق، ثم تبدأ العقول بخلق صور.

لم أجادلها.

اكتفيت بأن أفتح الخزانة، وأُخرج بدلة الغوص، وأضعها في حقيبة، ثم أغلقت السحّاب ببطء.

قالت:

— ماذا تفعل؟

— سأُغلقها.

— إلى متى؟

— لا أعلم.

لم يكن قرارًا نهائيًا، كان محاولة. محاولة لإقناع نفسي أن كل ما حدث يمكن أن يتوقف... إذا توقفنا.

مرّ يومان.

هدوء ثقيل، مصطنع.

محاولات للحديث عن أشياء عادية.

قهوة، أخبار، صمت.

كنت أستعيد عقلي... أو هكذا ظننت.

في اليوم الثاني، عند المساء، رنّ الهاتف.

اسم ماهر.

أجبت فورًا.

لم يتكلم.

سمعت أنفاسه فقط... بطيئة، متقطعة.

قلت:

— ماهر؟ أين أنت؟

صمت.

ثم قال، بصوت منخفض جدًا:

— رأيته.

أغمضت عيني.

— من؟

— أمير.

شعرت ببرودة في أطرافي.

— هذه المرة... لم يقل: لا تعود.

سألته بقلق:

— ماذا قال؟

تردّد، ثم قال:

— طلب مني... أن أنقذه.

قفزت من مكاني.

— ماهر، اسمعني جيدًا، هذا غير حقيقي، أنت مرهق، لا تذهب إلى أي مكان، ابقَ حيث أنت.

ضحك ضحكة قصيرة، خاوية.

— يوسف...

— ماذا؟

— أمير كان... فارغًا.

سكت.

— مثل الجثث.

لم أجد ما أقوله.

ثم قال، والجملة خرجت كاعتراف متأخر:

— سليم... لم يُسحب.

— ماذا تعني؟

— هو لبّى النداء.

— أي نداء؟

— نداء أمير.

ارتجف صوته:

— وأنا... أفكر أن ألبّيه.

صرخت:

— لا تفعل! اسمعني، لا تذهب، لا تقترب من النيل، أقسم لك أنني قادم الآن.

صمت.

طويل.

ثم قال ماهر بهدوء غريب، كأنه اتخذ قرارًا:

— يوسف... إن لم نُنقذه... سيُعيد غيره.

انقطع الخط.

ظل الهاتف في يدي، يضيء، بلا صوت.

قال يوسف، وهو يرفع رأسه ببطء:

«في تلك اللحظة... فهمت شيئًا واحدًا فقط».

ليست الجثث من تُنادى.

ولا الأحياء من يختفون أولًا.

بل أولئك الذين يسمعون النداء... ويستجيبون.

ثم صمت يوسف وعيناه بدموع تكاد تنفجر.

—-

الفصل الخامس

(يلبى النداء)

قال يوسف، وصوته صار أكثر انكسارًا:

«حاولت سارة منعي».

وقفت أمام الباب، جسدها متصلّب، عيناها دامعتان، لكن صوتها كان حادًا، يائسًا:

— يوسف، لا تذهب. أرجوك. ما يحدث ليس طبيعيًا. ماهر ليس بخير... وأنت أيضًا.

لم أرد.

أخرجت حقيبة الغوص من مكانها، تلك التي ظنّت أن إغلاقها كان نهاية الأمر. وضعتها على كتفي، وكان ثقلها هذه المرة مختلفًا، كأنها لا تحمل معدات... بل قرارًا.

قالت، وهي تمسك بذراعي:

— كل شيء بدأ بعد أن استمعت إليه. بعد أن صدّقته. هذا ليس إنقاذًا، هذا انتحار.

نظرت إليها، وقلت بهدوء لم أعرف مصدره:

— إن لم أذهب... لن أستطيع العيش.

تركت يدها، وخرجت.

في الطريق، اتصلت بماهر.

مرة...

مرتين...

لا إجابة.

ثم، فجأة، انطفأ الهاتف.

مغلق.

أوقفت سيارة أجرة، وطلبت منه أن يتجه إلى النيل. لم أسأله أي طريق، فقط قلت الاسم... وكان كافيًا.

السيارة تسير، المطر خفّ قليلًا، لكن السماء ما زالت ثقيلة.

ثم رأيته.

أمير.

كان واقفًا على الضفة، جسده واضح، ثابت، كأنه جزء من المكان. التفت ببطء... ونظر إليّ.

تجمّدت.

لم أصرخ.

لم أتحرّك.

سمعته.

صوته اخترق زجاج السيارة، اخترق رأسي:

— سيلبّي النداء...

ثم، بصوت أخفض، أبرد:

— أنت غير مرغوب فيك.

صرخت للسائق أن يتوقف. توقفت السيارة بعنف. نزلت، التفتُّ نحو الضفة... لم يكن هناك أحد.

اختفى.

اختفى الصوت.

كأن شيئًا ما قرر أن يتركني أكمل وحدي.

عند الوصول، كان النيل هادئًا كعادته. لا صراخ، لا أمواج عالية، فقط سطح ساكن... مخادع.

رأيت المركب.

مربوطًا... فوق النقطة السوداء مباشرة.

اقتربت.

وفي داخله...

كانت متعلّقات ماهر.

حقيبته.

نظارته.

قفازاه.

كل شيء...

إلا هو.

وقف يوسف صامتًا، ثم قال الجملة الأخيرة، بصوت خافت كأنها اعتراف أخير:

«عندها...

فهمت أن ماهر لبّى النداء...

وأن الدور لم ينتهِ»

-

قال يوسف، وصوته صار واهنًا، كأن كل كلمة تُسحب من قاع صدره:

«لم أكن أنا من وجد ماهر...

ماهر هو من عاد إليّ».

أوقفت المركب فوق النقطة السوداء. الماء ساكن، ثقيل، لا يعكس السماء، كأنه سطح آخر لا ينتمي للعالم. لا صوت طيور، لا حركة، حتى الريح كانت كأنها تلتف حول المكان وتتجاوزه.

أمسكت بالحافة، نظرت إلى العمق.

لم أرَ شيئًا.

ولا هذا كان الطبيعي...

ولا هذا كان المخيف.

ارتديت معداتي ببطء. الضوء جاهز. الأكسجين ممتلئ. الجسد مستعد...

لكن العقل كان يعرف: هذا النزول ليس إنقاذًا.

قفزت.

ابتلعني الماء فورًا.

السواد كان كاملًا، مطلقًا، لا علاقة له بالعمق. الأنوار تعمل، قوية، لكن الضوء لا ينتشر. كأنه يصطدم بشيء غير مرئي ويتكسّر.

طمي النيل كان كثيفًا، كثيفًا لدرجة أنني شعرت به يلتصق بوجهي، بصدري، بأفكاري. لم أعد أرى يدي.

ثم بدأت أراهم.

أشخاص...

أجساد واقفة، حولي، خلفي، تحتي. لا يتحركون، لا يقتربون، لكن وجودهم كان ضاغطًا، خانقًا.

سمعت الصوت.

— اخرج...

— لا مكان لك هنا...

ثم تغيّر.

— يوسف...

صوت أمير.

— لماذا عدت؟

تحرّكت بعنف، الضوء يهتز، ولا شيء يظهر. الظلام صار أثقل، كأنه يهاجمني من كل اتجاه، يضغط على صدري، على خوذتي، على أنفاسي.

ثم رأيته.

ماهر.

كان أمامي.

ثابتًا.

لم يكن طافيًا... كان واقفًا على القاع.

نظر إليّ...

وابتسم.

ابتسامة هادئة، خالية، لا خوف فيها.

مدّ يده نحوي.

وفي اللحظة نفسها...

سمعت صراخًا.

سليم.

صرخة واحدة، طويلة، ممزقة، خرجت من العمق ثم انقطعت فجأة، كأن أحدًا أغلق فمه إلى الأبد.

ارتجف المكان.

ثم جاءت الدوّامة.

لم تكن ماءً فقط... كانت قوة.

سحبت الأرض نفسها. الطمي، الظلال، الأجساد... كل شيء بدأ يدور.

رأيتهم جميعًا.

الجثث التي خرجت.

الوجوه الفارغة.

الأجساد المشدودة.

وفهمت.

لم يكونوا فارغين لأن النهر قتلهم...

بل لأن المكان أخذ ما بداخلهم.

المشاعر.

الخوف.

الذاكرة.

الإرادة.

كل ما يجعل الإنسان إنسانًا.

المنطقة السوداء لم تكن فخًا...

كانت مرشحًا.

من ينزل...

إما يُطرد.

أو يُفرَّغ.

أو يُعاد... كرسالة.

أمير لم يكن شبحًا.

كان حارسًا مكسورًا.

أُعيد ليمنع غيره.

ماهر...

لبّى النداء.

وسليم...

لم يُمنح حتى الاختيار.

اندفعت الدوّامة بقوة، ضربت الأرض، ودفعتني للخلف. شعرت بجسدي يُسحب، يُقذف، ثم... الضوء.

خرجت.

سحبتني المياه إلى السطح، كأن النيل قرر أخيرًا أن يلفظني.

على الشاطئ...

كانت الجثة.

جثة ماهر.

خرجت كما خرج غيرها.

فارغة.

مشدودة.

وما إن لمست الأرض... حتى سال منها الماء.

جلس يوسف صامتًا، ثم قال الجملة الأخيرة، بصوت كُتب ليبقى:

«الآن فقط فهمت...

الجثث لا تخرج لأن النهر يريد كشف سره...

بل لأنه لم يعد قادرًا على حمل عددهم».

قال يوسف، وصوته صار مبحوحًا كمن لم ينم منذ أعوام:

«لم أخرج من الماء فقط...

خرجتُ من قدرتي على الاحتمال».

جلستُ على الضفة، المطر توقف، لكن الرطوبة كانت تلتصق بجسدي. المركب ما زال فوق النقطة السوداء، ساكنًا، كأن شيئًا تحته يمسك به. أنفاسي كانت متقطعة، يداي ترتجفان، ورأسي أثقل من أن يبقى مرفوعًا.

أغمضت عيني.

لم أنم...

سقطت.

وحين فتحت عيني مرة أخرى، كان النهر أمامي.

جثة ماهر تطفو.

ليست بعيدة، ليست قريبة.

وجهه مائل، عيناه مغلقتان، الجسد يتحرك بخفة مع الماء، كأنه لا وزن له.

ناديت اسمه...

لم يتحرك.

ثم ابتلعني الظلام.

———

استيقظتُ على ضوء أبيض قاسٍ.

رائحة مطهّرات.

صوت أجهزة.

مستشفى.

كانت سارة بجانبي، وجهها شاحب، عيناها متورمتان. خلفها، رأيت بعض زملائي، ورؤسائي في العمل، ورجلين من الشرطة.

قال أحدهم بهدوء رسمي:

— يوسف... حاولتَ إنقاذ ماهر. للأسف... لم تنجح.

قال آخر:

— التحقيق انتهى. ماهر كان مضطربًا. يبدو أنه كان سبب كل ما حدث.

كلماتهم كانت تسقط عليّ دون أن تستقر.

سارة أمسكت بيدي:

— أرجوك... لا تعد إلى العمل. انتهى كل شيء.

أومأ رؤسائي موافقين.

— صحتك أولًا. لن نسمح لك بالعودة.

أدرت وجهي نحو السقف.

وضعت رأسي على الوسادة.

الحيرة كانت أثقل من الخوف.

أغمضت عيني.

وفجأة...

ـــ يوسف.

فتحت عيني.

ماهر.

واقف عند طرف السرير.

وسليم بجانبه.

كلاهما يبتسم.

قال ماهر بهدوء غريب:

ـــ لا تخف... نحن هنا لنطمئن عليك.

قلت بصوت مرتجف:

ـــ كيف...؟ ماذا...؟

اقترب سليم، وقال:

ـــ لا تلبِّ النداء يا يوسف.

ـــ ماذا؟

ـــ أمير... لبّى النداء بدلًا منك.

نظرت حولي.

الغرفة اختفت.

رأيت من الشباك...

النيل.

لكن كيف؟

أنا في المستشفى.

وفي وسطه...

قارب.

يقف فيه أمير.

ينظر إليّ.

بدأ ماهر وسليم يقتربان. أمسك أحدهما بساقي، والآخر بصدري. شعرت بالضغط، بالاختناق.

— إن عدت... لن تعود للحياة.

— ستأتي معنا.

ظهرت الوجوه.

الوجوه السوداء.

تخرج من الجدران، من السقف، من الأرض. نفس الوجوه التي رأيتها تحت الماء. أفواه مفتوحة، بلا صوت.

أردت الصراخ...

لم أستطع.

شعرت أن نفسي ينقطع.

وفي لحظة الاستسلام...

ـــ يوسف! استيقظ!

صوت سارة.

ضوء.

أيدٍ تمسكني.

الطبيب يصرخ:

ـــ اهدأوا، اهدأوا!

ممرضون يثبتونني.

إبرة.

الطبيب يقول لسارة بصوت منخفض:

ـــ يحتاج إلى راحة تامة. سنعطيه منوّمًا... سينام الآن.

بدأ كل شيء يبتعد.

آخر ما سمعته...

صوت الجهاز.

وهمسة...

لم أعرف إن كانت من داخلي... أم من النيل:

— النداء لم ينتهِ.

ثم...

نمت.

———-

الفصل السادس

(أصداء النقطة السوداء)

جلستُ على الأريكة في بيتي، أُحاول أن أستعيد بعضًا من هدوء العقل بعد كل ما رأيته، بعد كل ما سمعته، بعد كل ما شعرت به في تلك المياه السوداء. كانت سارة تقف عند باب غرفة المعيشة، عيناها تحاولان أن تقرأني، كأنها تريد أن تتأكد أني ما زلت أنا... الإنسان الذي يعرفه العالم، لا الغواص الذي خرج من عمق النهر ليعود بظلٍّ غير مرئي، أو كائن جديد لا يفهمه حتى هو.

همست بصوت متعب:

— سارة... كل شيء... انتهى... أظنّ.

لكن عيناها لم تكذب. كانت تعرف أن ما حدث لم ينته.

— يوسف... لقد تعبت .. بداخلك مرهق... لا تقترب من أي شيء الآن... لا تذهب للغوص... لا تنظر إلى النهر... — قالتها وهي تقفز بين القلق والغضب، محاولة أن تمنعني من التفكير فيما لم أستطع نسيانه.

وضعت رأسي بين يديّها،

أستمع إلى صمت المنزل. الصمت الذي لم يعد صمتًا بعد الآن. كان ثقيلاً، يضغط على صدري، يملأ الرأس، يملأ القلب. ثم بدأ الصوت... خافتًا، لكنه واضح، يأتي من الهاتف القديم الذي تركته على الطاولة. نفس صوت ماهر:

— "أنت خرجت... لكنك لم تنجُ."

ارتجف جسدي. لم يكن الهاتف يعمل، لم يكن أحدهم موجودًا، لكن الكلمات وصلتني كأنها حقيقية، لا يمكن تجاهلها.

نظرت إلى المرآة. انعكاسي... تأخر عن الحركة الحقيقية جزءًا من الثانية. لم أكن أرى نفسي فقط... كنت أرى ظلًا، صورة مشوهة، شيء يراقبني من خلفي، شيء يعرف كل ما فعله يوسف في النهر وما لم يفعله.

جلستُ، أحاول أن أتنفس. لكن الماء، التيار، النقطة السوداء، لم تتركني. لم يتركها رأسي، لم يتركها جسدي. شعرت بأن النهر قد تسلل إلى كل شيء حولي، إلى الهواء، إلى الضوء، إلى نفسي.

ركبت السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، كل خطوة كانت ثقيلة. كل صوت أصبح صدىً في رأسي. لم أعد أستطيع التمييز بين الواقع والحلم، بين ما هو حي وما هو ماضٍ لن يرحل.

ثم، عند نافذة غرفة نومي، لمحت انعكاسًا آخر.

ليست ظلي فقط، بل ظل شخص واقف خلفي، ثابت، لا يتحرك، لكنه حاضر. حاولت الالتفاف... لم أجد أحدًا. حاولت أن أصرخ... لكن الصوت لم يخرج.

سارة جاءت فجأة، أمسكت بيدي، قالت بنبرة تملؤها الخشية:

— يوسف... اسمعني... كل شيء انتهى. لن يصدقك أحد... لن يفهموا ما حدث. لا تحاول.

— لا أستطيع... — همست. — إن لم أحكي... سأجنّ.

رمت حقيبتي على الأريكة، أخرجت معدات الغوص القديمة، كما لو أن حملها مرة أخرى سيعيد السيطرة على جسدي، على عقلي. لكنها لم تفعل. كل قطعة من المعدات كانت ثقيلة أكثر، كأنها تحمل ذاكرة النهر بأكملها، كل المياه السوداء، كل التيارات، كل الأصوات.

سارة نظرت إليّ بعينين دامعتين:

— يوسف... لا تذهب... هذا ليس إنقاذًا... هذا انتحار.

— إذا لم أذهب... لن أستطيع العيش.

جلسنا في صمت طويل، كل منا يعرف الحقيقة التي لا يمكن نطقها.

ليلة كاملة، حاولت النوم. لكن كلما أغمضت عيني، رأيت المياه، رأيت الظلام، رأيت الجثث، رأيت النداء. حتى بعد أن أغمضت عيني... كان الصوت يهمس:

— "أنت خرجت... لكنك لم تنجُ."

استسلمت للنوم أخيرًا، لكنه لم يكن نومًا. كان مجرد فترة انتظار... انتظار أن يكتشف يوسف الحقيقة: أن كل ما حدث لم ينته، وأن النهر، النقطة السوداء، الجثث، النداء... ما زالوا معه، حوله، داخله.

-

وفى أحد الأيام كنت أجلس في شقتي ،

ومازال فى رأسي ماحدث فى المستشفى، جلست محاولًا أن أستعيد شيئًا من هدوء العقل الذي فقدته منذ أن خرجت من النهر. كل شيء حولي بدا عاديًا، لكنه لم يكن كذلك. كنت أشعر أن الرعب الذي اختبرته في النقطة السوداء لم يتركني، لم يغادرني. كان يختبئ في كل ظل، في كل ضوء، في كل قطرة ماء حولي.

كنت أحاول أن أملأ فراغ رأسي بالروتين اليومي، لكن كل شيء كان بلا جدوى. فجأة، تذكرت قصص الغواصين السابقين الذين اختفوا وعادوا فارغين، قصص لم يصدقها أحد، لكنني كنت أعلم أنها حقيقية.

قررت أن أبحث عن إجابات. اتصلت برجل مسنّ، ناجٍ قديم من النيل، عرفته باسم "كرم النجّار". قلت له بصوت يرتجف:

— أحتاج أن أفهم، كل ما حدث... كل ما رأيته... هل حدث هذا لأحد قبلي؟

صمت للحظة، ثم أجاب بصوت هادئ لكنه ثقيل:

— لم تخرج من الماء وحدك يا يوسف. لم ينجُ أحد كما يظن الناس. الغواصون يعودون، لكنهم فارغون من الداخل. النهر لا يقتل، بل يختار من يسمع النداء. من يلبّي النداء يُفرغ، ومن يرفض يُطارد.

ارتجف جسدي. كانت كلماته ثقيلة على عقلي، لكنها واضحة. شعرت بأن الأصوات بدأت تتسلل من حولي: همسات خافتة، خطوات خفية، أشياء تتحرك في الظلال بلا سبب.

ذهبت في اليوم التالي إلى الكوخ الذي أخبرني عنه النجّار، على أطراف المدينة، حيث المياه قريبة لكن ليست النهر مباشرة. دخلت، ووجدت صورًا قديمة لغواصين وجثث، كل شيء موثّق بعناية، وكأنهم يراقبون كل من يقترب من النهر.

قال لي النجّار وهو يشير إلى الصور:

— هؤلاء هم المستدعون... ليسوا جميعهم أحياء. البعض اختار النهر، البعض رفض، والبعض لم يعد كما كان.

شعرت بالقشعريرة تجري في جسدي.

— أين أنا؟ — همست.

ابتسم ابتسامة حزينة:

— أنت... قد تكون أنت المختار الذي رفض. لذلك، كل شيء حولك... كل الأصوات، كل الظلال، كل الجثث... تلاحقك، إحذر يابني...

ثم أكمل يوسف..

عدت إلى شقتي، كل شيء يبدو هادئًا من الخارج، لكن داخلي كان في دوامة. الهواء ساكن، الماء في زجاجات المنزل ثقيلاً حتى وأنا أحمله لأشرب ، كأن كل شيء يختبرني، يضغط عليّ، يسألني: هل أنت جاهز لتلبي النداء أم ستترك الجميع يسقط؟

جلست على الأريكة، أغمضت عيني، محاولًا أن أستعيد بعضًا من السيطرة، لكن فجأة شعرت بيد تمسك بكتفي. لم تكن من بشر. التفت... لم يكن أحد، لكن شعرت بأن شيئًا يراقبني، يختبرني، يختبر إرادتي.

همس الصوت ذاته في رأسي:

— "أنت متأخر... النهر يريد الإجابة... والبوابة لن تنتظر."

سقطت على الأرض، محاولًا أن أفهم، لكن كل شيء بدا وكأنه حلقة مستمرة، دوامة لا نهاية لها. وكلما حاولت أن أستعيد توازني، شعرت بأن المستدعون يقتربون أكثر، يحيطون بي، يحدقون فيّ... بلا أي رحمة.

كنت أعلم أنني لم أعد أستطيع الهروب. لم أعد أستطيع تجاهل الصوت، ولم أعد أستطيع تجاهل الظلال التي ترافقني في كل خطوة. كانت هذه حقيقة حياتي الآن... أن أعيش تحت الرقابة المستمرة للنداء، وأن أكون جزءًا من شيء أكبر، شيء لم أفهمه بعد بالكامل.

—-

الفصل السابع

(من لبّى النداء)

لم أعد أستطيع التمييز بين ما هو حلم وما هو واقع، كل يوم أستيقظ فيه أشعر بأن النهر يرافقني وأن المنطقة السوداء تنتقل معي. كل الأصوات التي سمعتها تحت الماء لم تتركني، حتى في شقتي لم أعد أستطيع الجلوس بمفردي. رأيت سليم يتحرك في الظلال وكأن جسده لا يلمسه الواقع، وظهر ماهر في أحيان أحيانًا يبتسم في أماكن لا وجود له فيها وأحيانًا يختفي فجأة وكأن شيئًا ما يحركه من الداخل.

الماء بدأ يظهر في زوايا المنزل، في الحوض، في أكواب المياه، حتى في زجاجات لم تُفتح، وكلما اقتربت منه شعرت بثقل يضغط على صدري وعلى عقلي. الأصوات لم تعد همسات فقط، بل نداءات واضحة تتكرر بصوت واحد، متشابهة، تختلف في لحظتها، كأن كيانًا واحدًا يحيط بي ويراقبني.

كل شيء كان يتحرك حولي بلا سبب، أشياء صغيرة كأوراق تتحرك أو ظل يمر بسرعة، انعكاس في الزجاج يتأخر عن الحركة الحقيقية، حتى انعكاسي بدا غريبًا وكأن شخصًا آخر يقف خلفي يحاكي حركتي ويحاول أن يضغط على عقلي.

كل شيء أصبح اختبارًا مستمرًا، وكلما حاولت أن أفهم شعرت بأن المستدعون يقتربون أكثر، يحدقون بي من الزوايا بلا أنفاس، بلا أصوات واضحة، لا يمكن الهروب منهم.

النداء يزداد قوة ويقيني بأنني المختار، وأن ما يحدث ليس صدفة، وأن أي خطوة خاطئة يمكن أن تجعلهم يختارون شخصًا آخر ليصبح الفارغ التالي. لم أعد أستطيع النوم أو الابتعاد عن النهر، كل خطوة خارج المنزل، كل نظرة إلى أي مسطح مائي تجعلني أسمع النداء وأرى الظلال، وكأنها تراقب كل تحركاتي.

جسدي يرتجف، روحي متعبة، عقلي مضطرب، كل شيء صار واضحًا الآن، أن ما يحدث ليس حادثًا منفردًا، أن كل الغواصين الذين اختفوا أو عادوا فارغين لم يكونوا محظوظين، النهر يختار، والنداء يراقب، وكل المستدعون جزء من هذه اللعبة المرعبة.

كلما اقتربت من الحقيقة شعرت بأنها تبتعد عني أكثر، وكلما حاولت المقاومة شعرت بثقل أكبر، وكأن كل شيء يريد مني أن أقبل دوري أو أن أُترك للطوفان الذي لا ينتهي.

وماهر يظهر ويختفي، وسليم يراقب ويبتسم في أماكن لم أعد أستطيع تفسيرها، والنداء صار واضحًا لا يخطئ، يسمعني من كل اتجاه، يقول لي: "أنت المختار، لكنك ترفض".

أنا الآن أجلس على حافة الشرفة، أنظر إلى الشارع الفارغ، وكل شيء حولي يبدو طبيعيًا، لكني أعلم أنه ليس كذلك، كل ظل، كل ضوء، كل قطرة ماء تحرسني وتختبرني وتضغط على عقلي وروحي. أدرك أنني لم أعد أستطيع تجاهل الصوت، ولا الاختبار، لم أعد أستطيع العودة إلى حياة عادية، لم أعد أستطيع أن أصدق أن أحدًا سيفهم أن كل هذا حقيقي، أن كل هذه الجثث، وكل المستدعون، والنداء، وكل ما رأيته تحت الماء كان بداية شيء أكبر.

الآن أعلم أنني أعيش تحت مراقبة مستمرة، وأن أي خطأ قد يجعلني أصبح مثلهم، فارغًا أو مختفيًا، ولم أعد أستطيع الهروب من النهر، أو من الظلال، أو من النداء. أنا هنا لأستمع، لأرى، لأشعر، وكل ثانية تمر تثبت لي أن النقطة السوداء ليست مكانًا، بل كيان حي يراقب، ويختبر، ويختار.

—

لم يعد بوسعي تجاهل الأصوات، لم يعد بإمكاني الجلوس في البيت وكأن شيئًا لم يحدث، فالتهديدات وصلت إليّ مباشرة، أصوات خافتة خلف الجدران

طرقات على النوافذ، همسات من الطابق العلوي، أشياء تتحرك عندما أستدير، أشياء لا أستطيع رؤيتها بوضوح لكنها موجودة تراقبني، تضغط على عقلي.

سارة حاولت تهدئتي، حاولت أن تمنعني من الخروج إلى النهر، لكن كل شيء بدا وكأن يدفعني إلى هناك، كأنني مطالب أن أواجه ما تبقى من النقطة السوداء، أن أواجه الحقيقة بنفسي.

أخبرتها: ـــ لا أستطيع البقاء هنا، يجب أن أذهب، يجب أن أرى ما يحدث، يجب أن أفهم.

خرجت في الصباح الباكر، الهواء بارداً والضباب يعلو النهر، كل خطوة شعرت بها وكأنها تقربني أكثر من النهاية، كل قطرة ماء على وجهي كانت مثل نداء جديد يهمس في رأسي.

وعندما اقتربت من النقطة السوداء، لم يكن هناك ما توقعت، لكن فجأة ظهر غواص آخر، لم أره من قبل، ولم يعرفني على الفور،

لكنه كان يعرفني، يعرف أني أحد أفضل الغواصين في البلاد.

اقتربت منه وحاولت أن أتحدث، أن أفهم، أن أوقف أي خطأ، لكنه بدا مرتبكًا ومشوشًا، كما لو أن شيئًا في النهر قد غيّر عقله، شيئًا لم أره من قبل. حاولت أن أنقذه، أن أوقف ما أراه كخطر،

لكن نداء النقطة السوداء لم يترك له خيارًا، ثم سمعته يقول لي بصوت مبحوح: "لقد تم استبدالك، إذا نزلت مرة أخرى ستموت."

ارتجفت، حاولت أن أصرخ، لكن صوتي لم يكن لي، كانت زوجتي سارة تسمع كل شيء من على الضفاف، وجهها محمر من الخوف والقلق،

تحاول أن تمنعني، تحاول أن تبعدني عن النهر، لكن كل شيء أصبح خارج إرادتها أيضًا. مدير عملي المباشر وصل بسرعة،

صارحني بعنف أن كل شيء قد خرج عن السيطرة، وأن أي محاولة للعودة قد تكون نهايتي.

لم أستطع أن أترك الغواص الغريب، شعرت بالمسؤولية، أردت إنقاذه ومنع التضحية، لكن بمجرد أن حاولت النزول مرة أخرى، دفعني التيار بعيدًا عن النقطة السوداء.

وغاصت كل مظاهر الرعب للحظة، وغاب الصوت، وغاب الغواص، وغاب النهر عن عيني...

لكن الأصوات لم تختف، كان هناك صوت الجميع، ماهر، أمير، سليم، حتى النجّار...

يصرخون في رأسي، يحذرونني، يوبخونني، يذكرونني بأنني لم أعد أسيطر على ما يحدث، وأن أي خطوة خاطئة تعني الموت أو الفراغ.

بعد هذا اليوم، كان عليّ مواجهة الواقع، التحقيق جاء سريعًا، الشرطة أخذت مني التفاصيل، سارة كانت إلى جانبي طوال الوقت، أصدقائي في العمل حضروا أيضًا، الجميع يراقب، الجميع يشكك، كل شيء أصبح ضغطًا هائلًا على عقلي.

اتهموني، واتهام ماهر كان واضحًا أمام الجميع، كأنه شريك فيما يحدث، وأنني أيضًا متورط بطريقة ما، رغم أنني كنت أحاول فقط النجاة،

رغم أنني كنت أحاول حماية الآخرين.

التحقيق كان قاسيًا، الأسئلة كثيرة، كل يوم يسألوني عن النهر، عن الأصوات، عن الغواص الغريب، عن كل شيء حدث منذ البداية.

وفي النهاية، صدر الحكم، القرار صارم، لم يكن مجرد تحذير، لم يكن مجرد تهديد، كان الحكم واضحًا: كل شيء يُترك للنهر، والنداء، وكل من يعرف الحقيقة لم يعد يُسمع له، لم يعد يُصدّق، لم يعد يُستوعب.

جلست في الغرفة بعد القرار، رأس على الوسادة، شعور بالضغط لم يزُل، لا الخوف، ولا الرعب، ولا الذنب... كل شيء كان يصرخ داخلي، وكلما أغمضت عيني، كنت أسمعهم مرة أخرى، صوت ماهر، أمير، سليم، النجّار، كلهم، يقولون: "لقد تم استبدالك... إذا نزلت مرة أخرى ستموت."

عرفت في تلك اللحظة أن المعركة لم تنته، أن الرعب لم يرحل، وأنني كنت جزءًا من شيء أكبر، شيء لم يفهمه أحد، شيء سيظل يلاحقني حتى النهاية.

ـــــــ-

الفصل الأخير

(هل تصدقنى!؟)

جلس يوسف على الكرسي المقابل للمكتب، يضم يديه إلى بعضهما، كمن يخشى أن تتفكك إن تركهما. الغرفة كانت بيضاء أكثر مما ينبغي، نظيفة أكثر مما يُطمئن، بلا نوافذ واسعة، وبلا أي صوت سوى قلم الطبيب وهو يدوّن بخط هادئ ومتواصل. شعور بالضغط على صدره، كأن كل شيء داخله يصرخ، لكنه مضطر أن يبقى ساكنًا.

نظر حوله، كل زاوية في الغرفة تبدو متساوية، بلا ظل، بلا أي أثر للعالم الخارجي، وكأن كل شيء هنا خارج الزمن. شعر يوسف بثقل على عينيه، لكنه حاول أن يركز، أن يكون واضحًا، أن يقول ما رأى منذ البداية، منذ اليوم الذي غطس فيه في النقطة السوداء، ومنذ أن اختفت ماهر والجثث وأمير وسليم، وكل ما حدث بعد ذلك.

قال يوسف بصوت هادئ لكنه متعب، كما لو كان يهمس لنفسه قبل أن يسمعه الطبيب:

ـــ لهذا السبب... لم أعد أحكي لأحد.

رفع الطبيب رأسه، نظر إليه بنظرة مهنية، خالية من الدهشة، لكن فيها بعض الاهتمام الخفي:

ـــ ولماذا تعتقد أنهم لم يصدقوك؟

ابتسم يوسف ابتسامة قصيرة، بلا فرح، بلا أمل:

ـــ لأن ما رأيته... لا يليق بالعقل.

سكت للحظة، ثم أضاف بصوت أكثر خشونة، كأنه يفرغ ثقل الأشهر الماضية:

— حاولت أن أكون واضحًا. شرحت كل شيء... النهر، المنطقة السوداء، الجثث، النداء... حاولت أن أنقل لهم كل شيء... لكنهم قالوا إنني متأثر، منهك، أعاني من صدمة، أعاني من خيال مضطرب.

تنفّس يوسف بعمق، كأنه يملأ صدره بالهواء قبل أن يفرغه كله في كلمات لم يسمعها أحد:

— لهذا... أحضروني إلى هنا.

دوّن الطبيب ملاحظة أخيرة في ملفه، ثم وقف ببطء، قال بنبرة هادئة وحاسمة:

— سنمنحك بعض الوقت للراحة. هذا أفضل لك الآن.

فتح الباب ببطء، أطل منه للحظة، وكأن الوقت توقف في تلك اللحظة، ثم خرج، تاركًا يوسف وحده.

جلس يوسف لحظة، يراقب الباب وهو يغلق، الصوت كان واضحًا في صمته... نهائيًا. لم يكن مجرد صمت الغرفة، بل صمت بعد الرعب، صمت يحمله كل شيء رآه منذ البداية.

وقف ببطء، تحرك نحو النافذة الصغيرة العالية، تلك التي لا تُطل إلا على فناء داخلي، نافذة لا تسمح إلا بلمحة ضيقة من الخارج، لكنه رأى بما فيه الكفاية.

نظر إلى الأسفل، شعور بالرجفة في عروقه، قلبه يخفق بعنف. وتجمّد.

الجثث كانت واقفة.

ليست ممددة

ولا طافية

ولا متداعية

بل صامدة، صامتة، متراصة، كأنها تنتظر لحظة واحدة. كل جسد بشري واقف، يتجه نحو النافذة، نحوه،

كما لو أن كل خطوة قام بها منذ دخوله المستشفى لم تكن صدفة، بل كانت جزءًا من هذا المشهد النهائي.

وجوههم كانت فارغة، بلا ملامح محددة، بلا أي حياة، لكنها تعرفه. كل عين تحدّق فيه، تراقبه، تلمسه دون أن تلمسه، تثبته في مكانه.

وقف يوسف يراقبهم، قلبه يكاد ينفجر، وقدماه مترنحتان.

بين الجثث رأى سليم، واقفًا كما لو لم يغرق، لم يختف، بل بقي هناك ينتظر.

صامتًا بلا أي حراك سوى العينين الثابتتين.

وماهر أيضًا واقف بجانب ماهر ابتسامته تلك التي رأها تحت الماء، ابتسامة غامضة لا تحمل معنى إلا الرعب. وأمير، في المنتصف، واقفًا كقائد هذا العالم المظلم، عينيه مليئتان بالقوة والتهديد، بلا أي كلماته تحتاج لأن تُقال، فحضوره وحده كافٍ ليجعل يوسف يرتعش.

لم يتكلموا. لم يتحركوا. لم يحتاجوا إلى أي شيء.

قال يوسف بصوت منخفض، بالكاد يسمعه نفسه:

— أنا هنا.

ظلوا واقفين، ساكنين، كأنهم يراقبون كل خفقة قلب.

كل لحظة كانت كأنها عقوبة على ما رآه.

على ما عانى منه وعلى كل المحاولات التي قام بها منذ البداية.

ثم انطفأ الضوء فجأة.

لكن الشعور بقي، شعور بالضغط الهائل بالشبح وبالرعب الخالص.

كأن كل المستدعون والنداءات والجثث قد أصبحوا جزءًا من جسده، من نفسه، من عقله.

جلس يوسف على الأرض، يحدق في الظلام خلف الزجاج، يسمع صمتهم، يلمس رهبة الوجود، يعرف أنهم هناك دائمًا، في كل مكان، في كل وقت، لا يغادرون، لا يرحمون، يراقبون، يختبرون، يضغطون، يحاسبون.

رفع رأسه نحو الأعلى، همس بصوت مكتوم، كان صوته الوحيد الذي بقي له:

— هل تصدّق؟ هل تصدّق ما رأيته؟

الجثث أسفل المستشفى بقيت غادرت وهى صامته بدون أثر.

—-

عزيزى القارئ بعد وصولك إلى هنا .

نسالك وبكل صدق

"هل صدّقت يوسف"

النهاية